# الشكوى في شعر الأخطل

# *The complaint In Poetry Akhtal*

أ. م. د حسن حبيب عزر الكريطي [1] Dr. Hassan Habib motif Alkraiti

**ملخص البحث**

يسلط هذا البحث الضوء على ظاهرة الشكوى عند أحد فحول الشعراء الإسلاميين وهو الأخطل الذي شكا كثيراً في شعره. و قد اقتصرت طبيعة الدراسة أن تكون من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، اختص التمهيد بالتعريف بالشاعر ثم تعريف الشكوى لغة واصطلاحاً وأهم بواعثها، فكان المبحث الأول معنيّاً بالحديث عن الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم جاء المبحث الثاني الذي تكفل بالحديث عن الشكوى إلى الممدوح وفيه استعراض لأشعار الأخطل التي شكا فيها للممدوح عن نفسه سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أم بغيرها.

في ما كان المبحث الثالث عن شكوى فراق الحبيبة الذي لجأ إليه الأخطل في مقدمات قصائده الغزلية كوسيلة للتعبير عن حزنه من ألم الفراق بينه وبين حبيباته.

وكان المبحث الرابع مهتمّاً بالشكوى من الشيب الذي كثيراً ما كانت تردد في أشعار الأخطل لاسيما بعد تقدمه بالعمر وعزوف النساء عنه.

وأخيراً جاءت خاتمة البحث وفيها استعراض لأهم النتائج التي توصلنا إليها.

**Abstract**

This research sheds light on the phenomenon of a complaint when donating a Akhtal Islamists poets who complained a lot in his Poetry. And the nature of the study may be limited from the front and pave the four sections and a conclusion, singled boot definition poet then define the language of the complaint and idiomatically, and most important motivation, every group on the first section by talking about the complaint to God

1- كلية التربية للعلوم الإنسانية /جامعة كربلاء

Almighty.

Then came the second part, which is to ensure that by talking about the complaint to the acclaimed and the review of the poems Akhtal started complaining of Mamdouh about himself, either directly or another.

In what was the third section of the complaint beloved parting, which resorted to Akhtal spinning in the introductions to his poems as a way to express his sadness from the pain of separation between him and Habibath.

The fourth section interested in complaining about the gray Poetry that have often been reluctant to poems Akhtal especially after the offer and the reluctance of women to age him.

Finally came the conclusion of research and the review of the most important of our findings

## المقدمة

فقد مثلت الشكوى أسلوباً اعتاد عليه الشعراء لبثِّ معاناتهم المختلفة، وآلامهم حينما واجهوا الحياة الاجتماعية المضطربة التي كانت تضرب بمساواتها على الشعراء والناس أجمع. ، وقد تعددت الدراسات فيها وتنوعت، واتسعت فيها مجالات الحوار، فالشاعر هو إنسان أولاً وآخراً، يشكو ويتألم في مواجهة الحياة وصراعاتها المختلفة سواء مع نفسه أم مع الآخرين، ومن هنا تكمن أهمية الدراسة في انها تسلط الضوء على شعر شاعر إسلامي كان من فحول الشعراء، وضمن الطبقة الأولى للإسلاميين منهم، ألا وهو الأخطل، لنبين من خلال هذه الظاهرة الشعرية، لمن كانت شكواه، و مم اشتكى، وهل اقتصرت هذه الظاهرة على غرض بحد ذاته أم في سائر الأغراض الأخرى.

لقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، اختص التمهيد بالتعريف بالشاعر ثم تعريف الشكوى لغة واصطلاحاً وأهم بواعثها، فكان المبحث الأول معنيّاً بالحديث عن الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم جاء المبحث الثاني الذي تكفل بالحديث عن الشكوى إلى الممدوح وفيه استعراض لأشعار الأخطل التي شكا فيها للممدوح عن نفسه سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أم بصورة غر مباشرة.

و كان المبحث الثالث عن شكوى فراق الحبيبة الذي لجأ إليه الأخطل في مقدمات قصائده الغزلية كوسيلة للتعبير عن حزنه من ألم الفراق بينه وبين حبيباته.

وجاء المبحث الرابع مهتّماً بالشكوى من الشيب التي كثيراً ما كانت تردد في أشعار الأخطل لاسيما بعد تقدمه بالعمر وعزوف النساء عنه.

وأخيراً جاءت خاتمة البحث وفيها استعراض لأهم النتائج التي توصلنا إليها.

وفي الختام ما هذا البحث إلا محاولة للكشف عن ظاهرة شعرية عند أحد الشعراء الفحول من الذين تنوعت أغراضهم الشعرية وتعددت وكانت حافلة بالكثير من الظواهر التي تستحق الوقوف عندها، وإن وفقنا في ذلك فمنه سبحانه وتعالى، وإن كان هناك من نقص، فهذا ما جبل عليه الإنسان، لأن الكمال له وحده جل ثناؤه.

## التمهيد

١- نبذة عن حياة الشاعر.
٢- تعريف الشكوى لغة واصطلاحاً
٣- بواعث الشكوى.

### ١- نبذة عن حياة الشاعر.

الأخطل: هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو بن التيحان بن فَدَوكس بن عمرو بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب[٢]، وروي أيضاً أن الأخطل اسمه غيوث، ويكنى أبا مالك[٣]، والأخطل لقب غلب عليه، ويقال سمي بذلك لكبر أذنيه، والخطل استرخاء الأذنين، ومنه قيل لكلاب الصيد خطل، ورجل أخطل، أي عظيم الأذن[٤]، وقيل إنّ هذا اللقب أُلصق بالشاعر بسبب أنه هجا رجلاً من قومه، فقال له: يا غلام: إنك لأخطل فغلب عليه[٥]، وكان الأخطل في صغره يسمى دوبلاً، لأن أمه كانت ترقصه به[٦]، ويقال إنه استاء من هذا اللقب، وقال ((والله ما سمتني أمي دوبلاً، إلّا نهاراً واحداً))[٧].

ولد الأخطل سنة ١٩هـ، وتوفي سنة ٩٠هـ[٨]، كان شعره مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، اشتهر في عهد بني أمية، وأكثر من مدح ملوكهم، حتى أشاد به أقرانه من الشعراء ((قيل للفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: كفاك بي إذا افتخرت، وبجرير إذا هجا، وبابن النصرانية اذا امتدح))[٩].

### ٢- تعريف الشكوى لغة واصطلاحاً.

**الشكوى لغةً:**

يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي ((شكو: الشكوى: الاشتكاء، تقول شكا يشكو شكاة، ويستعمل الاشتكاء في الموجدة، والمرض هو شاك مريض، وشكا إلى فلان فلاناً، فاشتكيه، أي أخذت منه ما يرضاه، والشكو: المرض نفسه))[١٠].

و(اشتكى)، شكا ومرض، واتخذ الشكوة ولجأ إليه ليزيل شكواه [١١]، ومنه قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾[١٢]، وقوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾[١٣].

وأصل الشكو فتح الشكوة، وإظهار ما فيها، وهي شقاء صغير، وكأنه في الأصل، استعارة، كقولهم:

---

٢- ينظر: المؤتلف والمختلف / ٢١.
٣- ينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ٤٦١/١.
٤- ينظر: المذاكرة في ألقاب الشعراء /٣٦.
٥- ينظر: الأغاني ٣٤٣/٧.
٦- ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها ٤٣٠/٢.
٧- الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره / ١٥.
٨- ينظر: الأعلام ٣١٨/٥.
٩- سير أعلام النبلاء ٥٨٩/٤.
١٠- كتاب العين ٣٨٨/٥.
١١- ينظر: المعجم الوسيط ١٠٢١/١.
١٢- سورة المجادلة الآية / ١.
١٣- سورة يوسف الآية /٨٦.

بثت له ما في وعائي، ونفضت له ما في جرابي، إذا أظهرت ما في قلبك[١٤].

**الشكوى اصطلاحاً:**

وهي فن شعري اعتمده الشعراء للتعبير عن معاناتهم وأحاسيسهم وتجاربهم المختلفة، بدأت البواكير الأولى منه في الشعر الجاهلي، فهذا امرؤ القيس يشكو طول الليل[١٥]:

**وليل كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواعِ الهموم ليبتلي**

والدلالة هنا لا تبتعد كثيراً عن التعريف اللغوي، إذْ عرّفها أحد الباحثين بقوله: ((ميل فطري عند الإنسان يلجأ إليه عند الشعور بالألم والحزن واليأس وما يوافق ذلك من إحساس بالاضطهاد أو الاضطراب في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية))[١٦]، إذن هي توجع يصيب الإنسان قد لا يستطيع حمله، كالمرض والفقر والشيخوخة وما إلى ذلك، لأنها متنفسه الوحيد للتعبير عمّا ألمّ به، لذا ((يفصح الشاعر في هذا الفن عن حقيقة ثبات العاطفة وصدق المشاعر الإنسانية وعمق التجربة العاطفية))[١٧].

يقول أبو تمام [١٨]:

**شكوت وما الشكوى لنفسي عادةً ولكن تفيض النفسُ عند امتلائها**

**٢- بواعث الشكوى:**

هناك بواعث عدة للشكوى أشار إليها بعض الباحثين[١٩]، ولكننا وجدنا أن هناك باعثين أساسيين لها وهما:

**أ- بواعث شخصية:**

وتتكون هذه البواعث عندما يعجز الإنسان المتألم من الوصول إلى تحقيق ما يطمح إليه، فيلجأ إلى الشكوى ليبسط من خلالها آلامه الداخلية المختلفة.

**ب- بواعث اجتماعية:**

وهذه البواعث تتجسد في اضطرار الشاعر وهو يواجه الأوضاع الاجتماعية السيئة في مجتمعه إلى بث شكواه، التي يتمثل فيها وجع الآخرين.

إن سبب الوقوف عند هذين الباعثين هو إننا وجدنا أغلب شكوى الأخطل تنحصر فيهما من خلال النماذج الشعرية التي كانت مدار دراسة البحث.

لقد اعتمد الشعراء في توظيف الشكوى في أشعارهم، ويكاد لا يخلو ديوان شاعر منها، فأخذوا يشكون الظلم الذي لحق بهم، أو يشكون الدهر، أو فراق الحبيبة. وشاعرنا الأخطل من بين هؤلاء الشعراء، إذ وجدناه في بعض قصائده شاكياً سواء في مقدمات قصائده أم في الأغراض المختلفة، وكأنه كان يمثل صورة الشعراء في عصره من الذي كانوا يلجؤون إلى الشكوى في أشعارهم، وخصوصاً الشكوى إلى الله سبحانه

١٤- تاج العروس ٣٨/٣٨٨.
١٥- ديوان امرئ القيس /١٨.
١٦- الشكوى في الشعر العربي من النصف الأول من القرن العشرين / ١٢.
١٧- شكوى الشعراء العذريين في العصر الأموي /١٠٥٩.
١٨- شرح ديوان أبي تمام / ٥.
١٩- ينظر: الشكوى في الشعر العربي في النصف الأول من القرن العشرين / ٨، وما بعدها.

وتعالى، فهذا جميل بثينة يشكو ما بدا له من حب بثينة قائلاً [٢٠]:

**إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها ... ولابد من شكوى حبيب يُروعُ**
**ألا تتقين الله فيمن قتلته ... فأمسى إليكم خاشعاً يتضرعُ**

وكذا جرير يقول [٢١]:

**إلى الله أشكو أن بالغور حاجةً ... وأخرى إذا أبصرت نجداً بداليا**
**إذا تنحنُ في دار الجميع كأنما ... يكون علينا نصفَ حولٍ لياليا**

**بواعث الشكوى عند الأخطل:**

لقد أملَتْ على الأخطل ظروف حياته مذ كان طفلاً تقلبات عدة، ففقد حنان الأم وهو صغير السن بعد ما غابت عن مسرح حياته، أما بسبب وفاتها أو لأن أباه طلقها، فعاش في كنف زوج أبيه التي كان لها بعض البنين الذين تفضلهم عليه حتى في الأكل، إذ كان يجوع دون أن يجد ما يسد به رمقه، فعانى الحرمان منذ الصغر[٢٢]، وبعد أن تفتحت قريحته الشعرية، انعكس ذلك في قصائده عندما كان يشكو مصائب الأيام، واصفاً نفسه بالانكسار والضعف والخوف والحاجة[٢٣].

## المبحث الأول: الشكوى إلى اللّه:

بما أن الأخطل عاش في العصر الإسلامي –وإن كان نصرانياً– فقد تأثر بالدين الإسلامي الحنيف وما جاء به من تعاليم سمحة وكان هذا الأثر جلياً في في شكواه إلى الله سبحانه وتعالى.

فمن شكواه التي قدمها إلى الخالق العزيز جل ثناؤه هي عندما حلَّ بقومه البلاء يوم البشر[٢٤] فقُتل الرجال وشُردت الأطفال، فلم يجد نصيراً له غير الله، فخاطبه قائلاً[٢٥]:

**لقد أوقع الجحّاف بالبشر وقعةً ... إلى الله المشتكى والمعولَ[٢٦]**
**فسائل بني مروان ما بالُ ذمةٍ ... وجبل ضعيفٍ، لا يزال يوصلُ**
**بنزوة لصٍ بعد ما مرَّ(مصعبُ) ... بأشعث لا يُفلى ولا هو يُغسلُ[٢٧]**
**أتاك به الجحّافُ، ثم أمرته ... بحيرانكم عند البيوت تقتلُ[٢٨]**
**لقد كان للجيران ما لو دعوتُمُ ... به (عاقل) الأروى أتتكم تنزّلُ**

---

٢٠– شرح ديوان جميل بثينة ١/٦٠.
٢١– شرح ديوان جرير / ٧٠٨.
٢٢– ينظر: الأخطل شاعر بني أمية / ٣٠.
٢٣– ينظر: الأخطل الكبير، حياته وشخصيته وقيمته الفنية / ١٤٣.
٢٤– البشر: اسم جبل يمتد من عرض الفرات إلى أرض الشام من جهة البادية، ينظر: معجم البلدان: ١/٤٢٦، ويوم الرحوب ويوم البشر ويوم مخاشن واحد كان للجحّاف على بني تغلب، وقيل هو موضع بالجزيرة، وهو ماء لبني جشم بن بكر رهط الأخطل أوقع به الجحّاف بقوم الأخطل وقعةً عظيمةً، وأُسِر الأخطل وعليه عباءة فظنّوه عبداً، وسُئل فقال: أنا عبدٌ فخُلِي سبيله، فخشي أن يُعرف فيقتل، فرمى نفسه في جُبٍّ من جبائهم، فلم يزل فيه حتى انصرف القوم فنجا وقتل أبوه غياث يومئذ. ينظر: معجم البلدان: ٣/٣٧.
٢٥– ديوان الأخطل: ١٦١.
٢٦– الجحّاف: ابن حكيم السلمي، ينظر هامش الديوان / ١٦١.
٢٧– اللص: أراد بها هنا الجحّاف، مصعب: تغلبي قتل الأشعث. الأشعث: هو النّابي ابن زياد الذي قتله مصعب، فثار له أخوه عبيد الله بن زياد بن ضبيان فاحتزّ رأس مصعب. ينظر: هامش الديوان / ١٦١.
٢٨– يقصد رأس معصب الذي احتجزه عبيد الله بن زياد فأتى به الجحّاف إلى عبد الملك.

لقد وقف الأخطل أمام محنة قومه حائراً عاجزاً، وهو يشاهد القتلى من القوم نساءً ورجالاً، وينجو من الموت بأعجوبةٍ، فلم يجد معيناً ولا ناصراً له سوى الله جل وعلا، وهو نعم المشتكى إليه والمستعان.

## المبحث الثاني: الشكوى إلى الممدوح

لقد وظف الأخطل غرض المديح أكثر من غيره ليبث فيه شكواه ومعاناته، وكل ما كان يختلج في صدره من مشاعر الهم، فكان ما يقوله تعبيراً صادقاً عن تلك النفس المضطربة، التي حال اليأس بينها وبين تحقيق ما كانت تصبو إليه.

فقد لا يجد الشاعر أمام الفقر بدّاً من أن يذهب إلى ممدوح له عسى أن يحظى بما يجود عليه به، ليكون ذلك جزءاً من التخفيف عن معاناته، يقول الأخطل[٢٩]:

**ولقد أُنَاجي النفس لما شَفَّها ... خوفُ الجنان ورَهبةُ الإقتارِ**
**بأبي سليمان الذي لولا يدٌ ... منه علقْتُ بظهر أحدب عارِ**

فالشاعر هنا يناجي نفسه عسى أن يلتقي بالممدوح، فيغدق عليه بالعطايا التي تزيل عنه الفقر الذي حلَّ به، وأصبح حائلاً أمام تحقيق مقومات العيش التي يحلم بها، حتى إذا ما استجاب الممدوح وقدم خدماته له، كان مستريح البال، ليذهب إلى قبره مطمئناً لا يخشى شيئاً، فيما نراه يبحث عن طريقة أخرى مع ممدوح آخر ليستجلب بها عطفه ومنّه، فيشكو إليه، وقد جاء على ظهر نوق هزيلة لا تقوى على شيء يقول [٣٠]:

**إليكم أبا مروان، يمّمَ أركُبٌ ... أتوك بأنضاءٍ خفافٍ لحُومُها**
**تحسّرن، واستقبلن للقيظ وقدةً ... تُغيّرُ ألوانَ الرجالِ سَمُومُها**
**إليك من الأغوار، حتى تراجمت ... عُراها على جُونٍ قليلٍ شُحومُها**

نلحظ هنا أن الشاعر لا يشكو الذي أصابه مباشرة، إنما يلجأ إلى الإيماء، فيصوّر ما أصاب النوق من هزال بعد أن استقبلن فصل الصيف اللاهب، حيث التفت بطونهن بظهورهن من الجفاف الذي لحق بهن من طول المسير في رحلته الشاقة صوب الممدوح، مستفهماً ألا تستحق هذه النوق أن تكرّم على هذا الجهد الكبير الذي بذلته؟ وتكريم النوق إنما يعني تكريم صاحبها (الشاعر).

وعلى قدر الخطوة التي كان يحظى بها الأخطل عند الوليد بن عبد الملك، إذ كانت صلته به آخر ما عقده في البيت المرواني[٣١]، فإنه يحاول استثمار تلك الضرائب والغرامات التي فرضت على الناس، في محاولة منه لتحمل مسؤولياته للتعبير عن حاجات القبيلة، فيخاطبه قائلاً[٣٢]:

**وحَاجِلَةِ العُيُونِ طَوى قُواها ... شِهابُ الصَّيف والسَّفرُ الشديدُ**
**طَلبن ابن الإمامَ فَتَى قُريشٍ ... بِجِمصٍ وجِمصُ غائرةٌ بعيدُ**
**نماك إلى الرَّباء فحولُ صدقٍ ... وجَدٌّ قَصَّرتْ عَنهُ الجُدُودُ**
**وزَنْدُكَ من زِنادٍ واريات ... إذا لم يُحمد الزَّندُ الصلودُ**

---

٢٩- ديوان الأخطل / ٥٣.
٣٠- ديوان الاخطل / ١٣٤.
٣١- ينظر: الأخطل: شاعر بني أمية / ١٣٣.
٣٢- شعر الأخطل: ٢٣٢.

وإنّا مَعشرٌ نابَتْ علينا غَرامـاتٌ ومُضْلَعةٌ كَؤودُ
وعضَّ الدهرُ والأيامُ حتى تغيّر بعدك الشَّعرُ الجديدُ

فالشاعر يمهد لشكواه التي يقدمها للممدوح عبر ما يريده من سير على مطيته التي أرهقها التعب والشقاء في الرحلة إلى حمص البعيدة، ولا ينسى أن يرفع من شأن الممدوح ليصل إلى مبتغاه، لأن هذا الممدوح –بحسب رأيه– هو القادر على ابرام كل أمر عجز عنه الآخرون، حتى إذا ما رأى علامات الارتياح قد لاحت على وجه ممدوحه، وضع الشكوى بين يديه، وهي رفع الأعباء عن أبناء قومه من الضرائب والغرامات التي فرضت عليهم دون وجه حق، وقد أخذت منهم الكثير، فكأن من وطأتها وشدتها عليهم جعلت رؤوس فتيانهم مطأطأة في مبالغة واضحة منه لاسترداد عطف الممدوح في رفعها.

لقد أراد الأخطل أن يُبدي امتعاضه للممدوح بما حل به وبقومه بصورة كشفت لنا عمق التجربة الشعرية التي تولدت لديه وهو في آخر أيام حياته.

ونلحظ إن الأخطل قد تجرّد من وجعه الداخلي ليصور وجع الآخرين، لأنه يتحدث بلسان قومه لا بلسانه فقط، وهذا ما نجده عند الشعراء في عصره، فهذا الراعي النميري الذي يرفع شكواه إلى عبد الملك بن مروان معرّضاً فيها وطأة الضرائب، وقسوة الحياة، مما زاد من فقر قومه قائلاً[٣٣]:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة شكوى إليك مظلّة وعويلا
من نازحٍ كَثُرت إليك همومه لو يستطيعُ إلى اللقاء سبيلا

## المبحث الثالث: الشكوى من الحبيبة.

شغلت الحبيبة بال الشعراء على مرّ العصور، فراحوا يصورون لنا ما كان يعصر قلوبهم من آهات ومعاناة بسبب هجرها لهم، متكئين على مقدمات قصائدهم تارة، وأغراضهم الشعرية لاسيما غرض الغزل تارة أخرى، إذ أن مقدمة القصيدة العربية دائماً ما كانت ((تشكل المفتاح الرئيس الأول في تجارب الشعراء، ومدخلاً مهماً لموضوعاتهم، فإن المرأة كانت مرسومة شاخصة في صورة الطلل وآثار الديار))[٣٤].

لقد استثمر الأخطل المقدمات الغزلية في قصائده ليبث من خلالها شكوى فراق محبوبته وهجرها إياه، فهذه (رضوى) ترحل عن الأماكن التي سكنت فيها بقربه، فيشكو بألم وحسرة واصفاً ذلك المشهد بالقول[٣٥]:

عفا واسطٌ من آل رضوي، فنبتلُ فمجتمع الحَرَّينِ، فالصبر أجملُ
فرابية سكران قفرٌ، فما لهم بـ ها شبحٌ إلّا سلامٌ وحرملُ
صحا القلب إلّا من ظغائنٍ فاتني بهنَّ ابن خلّاس طفيلٌ وعزهلُ
كأني، غداة انصعنَ للبين، مَسلمٌ بضربةِ عُنقٍ، أو غويٌّ مُعذَلُ

٣٣– شعر الراعي النميري /٥٤.
٣٤– صورة المرأة في شعر الأخطل وجرير والفرزدق / ٧١.
٣٥– شعر الأخطل / ٢.

هكذا بدت المواضع (رضوي، نبتل، الحرّان، السكران) التي تسكن فيها هذه الحبيبة خالية، لم يبقَ منها سوى نبات الحرمل، ولذلك فالشاعر هنا يشكو حالة البؤس والشقاء والذل التي كانت عليه هذه الديار بسبب فراقها.

وفي قصيدة أخرى مماثلة يقول[٣٦]:

**صحا القلب عن أروى وأقصر باطله ... وعاد له من حبّ أروى أخابله**
**أجدّك ما تلقاك إلّا مريضةً ... تداوين قلباً ما تنام بَلابلهُ**
**وقد كان منها منزلاً نسلتذّهُ ... أُعامقُ برقاواتهِ فأُجاولهُ**

فيبيّن لنا الشاعر إن قلبه ما كاد يصحو من حب أروى، ثم سرعان ما يعود إليها، ويشكو إنه لم يجدها لتداوي قلبهُ المجروح إلّا وكانت معتلة عليه.

ونجده في قصيدة أخرى يشكو من النساء دون أن يذكر امرأة بعينها، فيقول[٣٧]:

**كذبتك عينك أم رأيت بواسطٍ ... غلسُ الظلامِ من الرباب خيالا**
**وتعرّضتْ لك بالأباطح بعدما ... قطَعَتْ بأبرقَ خُلّةً ووصالا**
**وتعوّلَتْ لتروعنا جنيّة ... والغانياتُ يُرينَّكَ الأهوالا**

فنلحظه يشكو هجر الغانيات له بعد أن رأى منهنّ الأهوال، وإنما ذكر الرباب هنا فإنه عُنِيَ بها مثالاً للنساء، فليس حالهنّ بأفضل حالٍ من الرباب.

وقد يجمع الأخطل في مقدمات قصائده شكوى هجر فراق المحبوبة إلى جنب الشيب الذي اعتراه، كما في قوله[٣٨]:

**ألم تعرض، فتسأل آلَ لهوٍ ... وأروى، والمُدلةَ والربابا**
**بأيامٍ خوالٍ صالحات ... ولذاتٍ تذكرني الشبابا**
**نزلت بهن فاستذكيت ناراً ... قليلاً ثم أسرعن الذهابا**

إذ يبدأ بسؤال صديقه لعله يتذكر الأيام السعيدة التي قضاها في شبابه مع أولئك النسوة، وكأنه يريد أن يمهد لحديثه فيشكو همّه وحسرته بعد أن نزل بديارهن، ذاكراً أسمائهن (أروى، المدلّة، الرباب) في إشارة صريحة أنه نزل بدار كل واحدة على حدة، فوقع في حب كل من نزل في دارها، ولكن هذا الحب لم يستمر طويلاً بعد أن ولين عنه بعيداً ليتركن في قلبه حزناً شديداً لا يبرح عنه.

لقد شكا الأخطل وهو في حالة عشقه المتعدد مع النساء حالة السقم التي أصابت قلبه الذي لم يهنأ طويلاً بحبه المزعوم، فسعاد بعدت عن ناظريه، وقلبه يعيش حالة السقم لأنه لم يستطع تحمل فراقها فيقول[٣٩]:

**بانت سعادُ ففي العينين مُلْمُولُ ... من حبّها وصحيحُ الجسم مخبولُ**
**فالقلبُ من حُبّها يَعتادُهُ سَقَمٌ ... إذا تَذكرْتُها والجسم مسلولُ**

---

٣٦- م، ن / ٥٨-٥٩.
٣٧- شعر الأخطل / ٤١-٤٢.
٣٨- م، ن / ٥٢.
٣٩- ديوان الأخطل / ٤٠٩.

**وإن تناسيتُهـــا، أو قلتُ: قد شحطت عادتْ نواشطُ منها فهـــو مكبـولُ**

ولم تكن سعاد وحدها هي التي يشكو منها، بل معها سلمى التي أخلفت مواعيدها معه فزاده ذلك ألماً وحسرة، يقول(٤٠):

**بانت ســعاد ففي العينين تســهيدُ واســتحقبت لُبـهُ فـالقلبُ معمودُ**
**وقد تكون سُليمى غيــر ذي خلــفٍ فاليوم أُخلف مـــن سلمى المواعيــدُ**

ويشكو علّة السقم مع امرأة أخرى فيقول(٤١):

**وقد علقتني السقمَ، إذ برقـــت لنا على غرة منا، وما شعــرت فضلــى**

لكنه يطالبها بالوصل ثانية ليشفى مما يعانيه من الأسر والقيود فيقول(٤٢):

**فجودي بما يشفي السقيمَ، وخلّصي أسيراً بلا جُرمٍ أطَلَتِ لـه الكَبْلا**

ويقف الأخطل عند مواضع الحبيبة ثانية ليشكو ألم اكتوائه بنار الهجر والفراق قائلاً(٤٣):

**حلّت ضــبيرةُ أمواهِ العـداد، وقـد كـانـت تُحـلّ، و أدنى دارهـا، ثُكُـدُ**
**وأقـفـر الـيـوم مـمّـن حلَّـهُ الـثـمـدُ فـالشــعبتـان، فـذاك الأبرق الفَردُ**
**وبالصريمةِ منهـــا منـزلٌ خلـــقٌ عافٍ تغيّـر، إلّا النــؤيُ والوتـــدُ**

فالديار أقفرت بعد رحيل (ضبيرة) التي خلّفت برحيلها عن الصريمة منزلاً متهدماً لم يبق منه إلّا النؤي والأوتاد.

## المبحث الرابع: الشكوى من الشيب.

كثيراً ما اتجه الشعراء إلى لوحة الشكوى من الشيب، ليستعيدوا مع أنفسهم ذكريات خلت لأيام الشيب الزائلة وفيها من متع منحسرة، ليعوضوا بذلك عن إعراض المرأة وصدّها عنهم.

لقد تمرد الأخطل على واقع شيخوخته، رافضاً الاستسلام لها، فيذكر أيامه مع (سعاد وسلمى وسُعدى) اللائي رحلن عنه، بسبب المشيب الذي غطّى سواد رأسه، ليبين لنا اعترافه الصريح بتقدمه في السن، يقول(٤٤):

**بانت سعاد، ففي العينين تسهيدُ واستحقبت لُبَّهُ، فالقلب معمودُ**
**وقد تكون سليمى غير ذي خُلُقٍ فاليومَ أخلفَ من سُعدى المواعيدُ**
**لَمْعاً وإيماضَ برقٍ، ما يصوبُ لنـا ولو بَدا من سعـاد النحر والجيدُ**

ثم ينتقل إلى لوحة الشيب، فيشكو سبب الهجر والقطيعة قائلاً (٤٥):

**إمّا تريني حنـاني الشــيب من كبرٍ كالنســر أرجفُ، والإنســان معهودُ**
**وقـد يكون الصــبـا منـي بمنزلـةٍ يـومـاً وتقـادني الـهـيـف الـرعـايـدُ**

---

٤٠- ديوان الأخطل / ٤١.
٤١- م، ن / ٣٧٥.
٤٢- م، ن / ٣٧٥.
٤٣- م، ن / ٥٥.
٤٤- ديوان الآخطل/ ٤١.
٤٥- م، ن / ٤١.

يـا قـلّ خير الغواني، كيف رغن بي ... فشـربُـه وَشَـلٌ، فيهن تصـريـدُ
أعرضَ من شميطٍ في الرأس لاح بـه ... فهنَّ منـــه، إذا أبصرنـــه، حيـدُ

لقد حَنَتْ الأيام ظهر الشاعر، فبات مرتجفاً، كالنسر الهرم، إذ أضناه الكبر بعد أن كان صبياً يمتطي صهوات خيوله الغامرة، وسرعان ما يفرّ الشاعر إلى ماضيه ليرسم لنا صورة الندم والحسرة على أيام شبابه التي لم ينل فيها من وصل الغواني شيئاً، فكأنه يربط صورة الحاضر بالماضي لأمنية كان يتمناها في شبابه الذي ذهب دون رجعة.

كذلك نجده في قصيدة أخرى يشكو انحناء ظهره وتقدمه في السن، فيقول[٤٦]:

يـا قـاتـل الله وصـــل الغـانيـات إذا ... أيـقـنَّ إنّـك مـمّـن زهـا الـكـبـر
أعرضـــن لمّـا حنى قوســي مُوتُرَها ... وابـيـضّ بـعـد ســواد الـلـمـةِ الشـــعـرُ
ما يرعوينَ إلـــى داعٍ لحاجتـــــهِ ... ولا لهنّ إلـــــى ذي شيبـــــةٍ وطـــــرُ

فشكواه هنا من بعد الغانيات عن الوصال إذا ما تيقنّ من تقدم الرجل في السن، ولما شاهدن الأخطل وقد انحنى ظهره وابيضّ شعره فقد هجرنه، ونراه يختتم أبياته بالغضب الشديد على هذه النسوة اللائي – بحسب رأيه– لا يلبين حاجة من يطلب منهنّ المساعدة دون اعتبار إلى الشيبة التي غطّت رأسه.

ويبقى الأخطل في لوحة الشكوى نادماً على نفسه وهو ينظر إلى شبابه الذي رحل قائلاً[٤٧]:

قد كان عهدي جديداً، فاسـتبدّ به ... والعـهـدُ متّـبـعٌ مـا فـيـه مـنشـودُ
يـقـلـنَ لا أنـت بـعـلٌ يســتـفـاد لـه ... ولا الشـبـابُ الـذي قـد فـات مردودُ
هـل للشـبـاب الـذي قـد فـات مردودُ ... أم هـل دواءٌ يـردُّ الشـيـبَ مـوجـودُ
لـن يرجـع الشيبُ شبانـاً ولن يجـدوا ... عِـدْلَ الشبـاب لـهـم، ما أورق العودُ
إن الشبـــابَ لمحمـــودٌ بشاشتـــهُ ... والشّيبُ منصرفٌ عنـــه ومصـدود

يضعنا الشاعر هنا أمام تساؤلات، وعلامات استفهام أخذت منه مأخذاً، ثم سرعان ما يجيب عليها مقراً ومذعناً لما آل إليه حاله الآن، فلا عودة للشباب، و لا نساء ينقدن إليه ليكون زوجاً لهن، لقد ذهبت نضارة الشباب التي كان يتمتع بها، فكان لزاماً عليه أن يؤمن بحتمية القدر والتقدم في السن، فمهما عمل لا يمكن له أن يعيد عجلة الزمن إلى الوراء، ثم يختتم هذه اللوحة في إن الشباب محمودٌ وإن الشيبَ مذمومٌ ومصدود عنه، ونتفق مع ما يراه أحد الباحثين في ان هذه القصيدة قد قالها الأخطل وقد تجاوز الأربعين[٤٨]، إذ ان معانيها واضحة في استسلامه جراء تقدمه في السن، وانطواء مرحلة الشباب من حياته.

لقد اتخذ الأخطل من لوحة الحبيبة مجالاً رحباً ليبث من خلالها شكوى المشيب، فنلحظه في قصيدة أخر يتحدث فيها عن حبيبته (سلمى) التي هجرته بسبب الشيب الذي غزاه قائلاً [٤٩]:

دعتهـا نوى عنّـا شـطونٌ، وليتهـا ... ثوت مـا ثوى عنـد الكلاب جَنـادلـهْ
رأت أنّ ر يـعـانَ الشبـابِ قد انجلى ... وأنّ مشيبـــي حاضرتنـــــي عَواجلـهْ

٤٦- شعر الأخطل: ٩٩-١٠٠.
٤٧- ديوان الأخطل / ٤٢.
٤٨- ينظر: الأخطل شاعر بني أمية / ٦٥.
٤٩- ديوان الأخطل / ١٢٥.

وكذا الحال في مقدمة أخرى له مع نساء أخريات، يقول فيها [٥٠]:

صَـــرمتْ أمـامـةُ حَـبـلـهـا ورَعـومُ ... وبـدا الـمُجَـمجَـمُ مـنـهـمـا الـمـكـتـومُ
لـلـبَـيْـنِ مـنّـا واخـتـيـارِ سَـــوائـنـا ... ولـقـد عـلـمـتْ لـغـيـرُ ذاك أرومُ
وإذا هَـمّـمْـنَ بـغـدرةٍ أزمـعـنـهـا ... خُـلُـفّـاً فـلـيـس وصـــالـهـنّ يـدومُ
ودعـا الـغـوانـي إذ رأيـن تـهشّـــمـي ... رَوْقُ الشـــبـابِ فـمـا لـهُـنَّ حُـلـومُ
ورأيـــنَ أنّـــي قـــد علتنـــي كَبْرةٌ ... فالوجـــهُ فيـــه تضمّـــرٌ وسُهـــومُ

هنا يشكو الأخطل قطع وصاله من ابنتي سعيد بن هانيء (أمامة و رعوم) لأنه كان يأمل بوصلها، ولكنه يرى شبابه قد ولّى، والكبر قد لاح على وجهه، فبدا هزيلاً شاحباً، وهذا الأمر أدى إلى صدّه والارتحال عنه.

على انه يشكو في قصيدة أخرى هجر الغواني له أيضاً لذهاب الشباب عنه، فيقول[٥١]:

إن الـغـوانـي إنْ رأيـنَـكَ طـاويـاً ... بُردَ الشّـبـابِ طَوينَ عنْكَ وِصـالا
وإذا وعـدْنَـكَ نـائـلاً أخـلـفـنـهُ ... ووجدتُ عـنـد عِداتـهـنّ مـطـالا
وإذا دعونـــك عمّهنَ فإنّـــه ... نسبٌ يزيـدك عندهـــنّ خِبـــالا

فإنّ الغواني ما إن تراه وقد اعتلى الشيبُ رأسه فإنّهنّ سرعان ما يصدن عنه، فلا مواعيد بعد ذلك، لأن شعارهنّ المماطلة، ثم يصف لنا الشاعر إن الحال قد يصل بتلك الغواني إلى أن يخاطبن الرجل الكبير بلفظ (العم) وهذا -بحسب ما يراه- نسبٌ يزيده اضطراباً وتشوشاً في العقل.

على إننا نجد الأخطل في بعض لوحاته يبيّن لنا إن الشيب الذي يشكوه ليس بسبب التقدم في السن، ولكنه بسبب هجر الحبيبة فمحاولة يائسة منه للهروب من الواقع الذي يعيشه، أو ليكشف لنا عن حجم الألم الذي ترّكه في نفسه هجر هذه الحبيبة فيخاطب حبيبته (ميّ) بالقول [٥٢]:

يـا مـيِ هلّا يُـجـازى بـعـض ودّكُـمُ ... أم لا يـفـادى أســيرٌ، عـنـدكـم غَـلِقُ
ألَا يـكـونَـنّ هـذا عـهـدَنـا بـكـمُ ... إن النوى، بعـد شـحطِ الـدارِ تتفقُ
إمّـــا تريني حنانـي الدهرُ من كبرٍ ... وألبستنـي لـه ديباجـــةٌ خَلَـــقُ

فهو يدعو (ميّ)، ويشكو إليها بأن تجازي مودته بالمودة-فلا تتركه أسيراً في حبها، وأن يعودا إلى سابق عهدهما من الألفة والمحبة، ويكشف لها ما لحقه بعد هجرها له، إذ جعلت منه مرتعاً للمصائب والمحن، ثم يكشف لنا ان أشد هذه المصائب وقعاً عليه هو الشيب الذي لاح في رأسه، واصفاً حاله بعد ذلك بمن يرتدي لباساً ممزقاً.

ويترك الأخطل أوجاع الحبيبة، وما خلفته له من شيب، ليميل إلى الدهر متكئاً على أوجاعه التي ألبسته إياه قائلاً[٥٣]:

---

٥٠- شعر الأخطل / ٨٢-٨٣.
٥١- شعر الاخطل/٤٢.
٥٢- ديوان الأخطل / ٧١.
٥٣- م، ن / ٢١٢.

**وقد لبست لهـذا الدهـر أعصـره ... حتى تجلل رأسـي الشـيب واشـتعلا**
**فبـان منـي شـبابي، بعـد لـذّتـه ... كـأنـمـا كـان ضـيـفـاً نـازلاً رحـلا**
**إذ لا أطاوع أمـر العـاذلات، ولا ... أبقـي على المال، إنْ ذو حاجة سألا**

وقد يكون الشيب مسوّغاً للحبيبة في أن تترك الشاعر وتكرهه، وهذا ما بثه الأخطل بقوله[٥٤]:

**وقـد قـالـت مُـدَّلـةٌ، إذا قـلـتـنـي ... أراك كـبـرت والصُّـدغـيـنِ شـابـا**
**فإن يك ر يقـي قـد بـان منـي ... فقـد أروي بـه الرسـلَ اللهابـا**

فيستذكر وهو يشكو علّة الشيب بعض تجاربه مع النساء، فصاحبته ذكته لأنها شاهدت صدغيه، وقد علاهما الشيب، فلا حاجة لها به بعد الآن، ولكنه يأبى ذلك في محاولة لاستذكار أيام الشباب، والكشف عن معاودته النساء.

وفي محاولة يائسة من الشاعر ليظهر بمظهر الفارس، يقول إنه على الرغم من شبابه الرّيق الذي ولّى لكنه قادر على أن يروي ظمأ النساء في الحب.

لا يمكننا القول إن الأخطل في شكواه التي بيناها في المباحث الثلاثة إنما كان يحاول أن يفتش عن مخرج لآلامه التي كان يواجه بها قسوة الحياة، ولم يجد غير الشعر متنفساً له في ذلك بغض النظر عن نوع الشكوى، لأن شكوى أي شاعر إنما تمثل ساعة ضعف يمر بها الإنسان إذ يجد نفسه عاجزاً عن الصمود بوجه التحديات، فيعبّر مضطرّاً للبوح على سبيل تخفيف المعاناة، وهذا ما وجدنا في ثنايا هذا البحث.

واللافت للنظر إن أغلب شكوى الأخطل شكوى ذاتية، باستثناء حديثه في النص الأول الذي ذكرناه عن وقعة (الجحّاف) بقومه، مما يعني أنه مشغول بذاته عن قبيلته وهمومها، وهذا يفسّر بالقول إنه كان يعيش حياةً منعمةً في بلاط الخلفاء الأمويين، فلم يعرف ضنك العيش حقّاً. لذا لا مسوّغ للشكوى إلّا في الحديث المألوف عن الشكوى من ابتعاد النساء عنه، والشكوى من الشيب وتقدم العمر وهذه شكوى شخصية.

ومن هنا فلم يكن الأخطل قبليّاً في شكواه وإنما كان ذاتياً، وقد لا يكون صادقاً صدقاً واقعياً، ولكنه صادقٌ فنيّاً فيما بسطه في شعره.

## الخاتمة

بعد استعراض ظاهرة الشكوى في أشعار الأخطل من مقدمات وأغراض توصلنا إلى النتائج الآتية:

– كان لأيام الطفولة والحرمان التي عاشهما الأخطل الأثر الكبير في شكواه التي ضمتها في أغلب القصائد.

– إن أغلب موضوعات الشكوى عند الأخطل كانت في مقدمات قصائده ولاسيما الغزلية منها.

– ركزت الشكوى عنده على أربعة محاور أساسية هي الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى، والشكوى الى الممدوح، والشكوى من الحبيبة، والشكوى من الشيب، وقد كان الأخطل يشكو إلى الله في بعض الحالات حينما لا يجد ناصراً سواه، فيما كان في شكواه للممدوح يروم الحصول على مبتغاه الذاتي إن تأخّر ذلك، أما الشكوى من الحبيبة فقد وجدنا تعدد أسماء النساء اللائي تغزل بهن الأخطل وشكا من صدهن عنه،

٥٤– ديوان الأخطل / ١٩٦.

وكان أغلب ذلك في مقدمات قصائده، فيما بقيت لوحة الشكوى من الشيب معبرةً عن تقدمه في السن تارة، وهجر الحبيبة تارة أخرى.

– سار الأخطل على خطى أسلافه الشعراء الجاهليين في شكواهم التي كانوا يبثونها عند وقوفهم على الأطلال، وكذلك في الرحلة إلى الممدوح، أي لم يكن مبتكراً صوراً جديدة في شكواه.

– لم تكن الشكوى عند الأخطل غرضاً لذاته، وإنما كانت عبارة عن لوحات ضمّنها في قصائده ولاسيما المقدمات.

– أفاد الأخطل من تجربته الشعرية الطويلة في توظيف الشكوى في أغراضه الشعرية لتحقيق ما يريد إيصاله للمتلقي بصورة كشفت عن مدى شاعريته بين شعراء عصره.

## المصادر والمراجع


- القرآن الكريم.

١. الأخطل شاعر بني أمية، د. مصطفى غازي، دار نشر الثقافة، الاسكندرية، مصر، ط١، ١٩٥٧م.
٢. الأخطل الكبير، حياته وشخصيته وقيمته الفنية، د. فخر الدين قباوة، دار الأصمعي، حلب، الشام، ط١، ١٩٧١م.
٣. الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره، إيليا الحاوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨١م.
٤. الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي (ت ١٣١٠هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م.
٥. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، لجنة دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٧م.
٦. تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد المرتضى الحسيني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة الكويت.
٧. خزانة الأدب ولب لباب لسن العرب، عبد القادر بن عمرو البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت.
٨. ديوان الأخطل، شرح مجيد طراد، دار الجيل، بيروت، د. ت.
٩. ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، د. ت.
١٠. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
١١. شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قد له ووضع هوامشه وفهارسه، راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ٢٠٠٥م.
١٢. شرح ديوان جرير، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان.
١٣. شرح ديوان جميل بثينة، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتاب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ.
١٤. شعر الأخطل / رواية أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي عن أبي سعيد السكّري محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي، علّق حواشيه الأب انطون صالحاني اليسوعي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٨٩١م.
١٥. شكوى الشعراء العذريين في العصر الأموي، رسالة ماجستير، علي إبراهيم الجبوري، جامعة الموصل،

٢٠٠٦م.
١٦. الشكوى في الشعر الجاهلي، بحث د. قحطان رشيد التميمي، مجلة كلية الآداب بغداد، العدد ١٣ لسنة ١٩٧٠م.
١٧. الشكوى في الشعر العربي من النصف الأول من القرن العشرين، اطروحة دكتوراه، ياسمين بختر، الجماعة الإسلامية بإسلام آباد.
١٨. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط٢، ١٤٠٩هـ.
١٩. المذاكرة في ألقاب الشعراء، أبو المجد أسعد بن إبراهيم الشيباني الأربلي (ت٦٥٧هـ)، تحقيق شاكر عاشور، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٨٨م.
٢٠. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت.
٢١. معجم البلدان، ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي ت ٦٢٦ هـ)، قدّم له محمد بن عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م.
٢٢. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، د. ت.
٢٣. المؤتلف والمختلف، أبو الحسن بن بشر الآمدي (٣٧٠هـ)، تحقيق أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.